الفصل السابع

العوامل المؤثرة في بناء الشخصية

عوامل عديدة تتدخل في بناء الشخصية الإنسانية، أهمها: دور الوراثة، ودور البيئة، ودور المربي، ودور الطالب. وسنحاول إلقاء بعض الأضواء على هذه العوامل.

أولاً: دور الوراثة

هناك اتجاهان مختلفان عند العلماء الغربيين لتفسير الظواهر السلوكية لدى الأفراد. بحيث يعزي الاتجاه الأول أسباب هذه الظواهر إلى عوامل وراثية، بينما يرى أصحاب الاتجاه الثاني رد ذلك إلى عوامل بيئية.

ففي الوقت الذي يؤكد فيه علماء الوراثة من أمثال: (جولتون) و (بيرسون) على أهمية الوراثة، يؤكد علماء الاجتماع على أهمية البيئة.

يقول بيرسون: إن الناس يرثون عن آبائهم القدرة والخجل والمشاعر والحالات النفسية، بالطريقة نفسها التي يرثون بها الشكل، واللون، وطول القامة وغير ذلك.

بينما يقول هنري جورج: إن العوامل الوراثية التي يبالغ الناس الآن في أهميتها لا قيمة لأثرها إذا قورنت بأثر العوامل التي تؤثر في الإنسان، من هذا العالم.

وفي هذا إشارة إلى مدى الخلاف حول أثر العوامل الوراثية والبيئية في السلوك الإنساني[1]. وإن كان أصحاب المدرسة الاجتماعية لم يغفلوا أثر الوراثة بالكامل بل قللوا من تأثيرها.

---

(1) أسس الصحة النفسية - عبد العزيز القوصي، ص: 14.

دور الجينات في الوراثة

والوراثة: هي جميع العوامل الموجودة في الكائن الحي من اللحظة التي تتم فيها عملية تلقيح الخلية الأنثوية بالخلية الذكرية.

وقد أثبت علماء الحياة أن بالخلية خيوطاً اسمها الصبغيات أو الكروموسومات، وأن هذه الخيوط يمكن تقسيمها إلى مناطق متعددة، وافترضوا على ضوء الحقائق العلمية أن على كل منطقة منها ما يسمى: بالجينات، وأثبت علماء الوراثة أن هذه الجينات هي حوامل الاستعدادات الوراثية، فالخلية الناتجة بعد التلقيح تحمل كروموسومات جينات بعضها من ناحية الأم، وجينات بعضها من ناحية الأب ثم تبدأ الخلية تتكاثر مكونة الجنين[1].

وإذا كانت التفسيرات المبنية على حقائق علمية لظاهرة الوراثة.. وأثرها في تكوين شخصية الطفل.. قد ظهرت مؤخراً.. إلا أن هذا العامل كان واضحاً من قبل.. فعلماء الماضي كانوا يدركون أن في بذرة الزهرة، ونواة الشجرة، ونطفة الإنسان والحيوان ذخائر تنقل صفات الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة[2].
(ولقد اكتشف العلماء المسلمون ظاهرة الوراثة قبل أن يكتشفها علماء النفس والوراثة، ودلّلوا على كثير من آثارها ومميزاتها وأن لها دوراً إيجابياً في التكوين السليم وعدمه للإنسان، فهي تؤثر أثراً ذاتياً في الشخص منذ بداية تكوينه)[3].

تخيروا لنطفكم

وفي هذا الإطار يمكننا فهم حديث رسول الله ﷺ: «**تخيروا لنطفكم**»[4] وقوله ﷺ: «**تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس**»[5].

---

(1) أسس الصحة النفسية - عبد العزيز القوصي، ص: (15-16).
(2) الطفل بين الوراثة والتربية - محمد تقي فلسفي (1: 60).
(3) النظام التربوي في الإسلام - باقر شريف القرشي، ص: 59.
(4) ابن ماجه.
(5) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس.

فدلالة العرق في اختيار المرأة أو الرجل شريك حياته، تماثل دلالة الجين في هذه الأيام.

فالاختيار للزواج الذي يتحدث عنه رسول الله ﷺ يقوم على مبدأ الوراثة التي عبرت عنها لفظة دساس حيث تشير أن أخلاق الآباء تنقل إلى الأبناء.. بمعنى أنه في حال توفرت في الآباء صفات الصلاح والفلاح والأخلاق الفاضلة والنزعات الكريمة، والميول الحسنة والنوايا الطيبة، لابد وأن يكون للطفل نصيب من ذلك وهو في بطن أمه. وسيكون على عكس ذلك فيما لو طغت نزعات الشقاء على والديه. وعليه فليس غريباً على الطفل أن يكون شقياً أو سعيداً وهو في بطن أمه.. يؤيد ذلك حديث رسول الله ﷺ: **«الشقي من شقي في بطن أمه»**[1].

ويؤيده ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً من بني فزارة جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي جاءت بولد أسود. فقال: **«هل لك من إبل؟»**، قال: نعم، قال: **«ما ألوانها؟»** قال: حمر، قال: **«فهل فيها من أورق؟»**.

قال: إن فيها لورقاء، قال: **«فأنّا تراه..؟»**.

قال: عسى أن يكون نزعة عرق، قال ﷺ: **«وهذا عسى أن يكون نزعة عرق»**[2].

فالحديث واضح بأن هناك أعراقاً (جينات) لها وظائفها، منها: الأعراق الصانعة للصفات العنصرية كلون البشرة ولون الشعر ولون العين، وغير ذلك من الصفات.

وعليه يدعو الإسلام إلى زواج المعروفات بالصفات الحميدة تحسيناً للنسل. جاء ذلك واضحاً في دعوة الرسول ﷺ: **«تزوجوا الودود الولود»**[3]. ليس هذا فحسب بل إن الإسلام لا يتردد في أن يمنع الزواج في حال كانت المرأة مجنونة، وكذلك في حق الرجل. فلقد روي عن الإمام علي رضي الله عنه: **«إياكم وتزويج الحمقاء، فإن صحبتها بلاء وولدها ضياع»**.

---

(1) مسلم (كتاب القدر - 4783)، وابن ماجه (المقدمة- 45).

(2) البخاري (كتاب الطلاق - 4893 وكتاب الحدود- 6341).

(3) أبو داود (كتاب النكاح - 1754)، وأحمد (13080).

ويظهر من هذه النصوص أن الطفل يرث في رحم الأم من صفات الآباء والأمهات، وهذا ما أشار إليه ألكسيس كاريل (العالم الأمريكي الشهير) عندما تحدث عن ضعف العقل والجنون، فرغم عدم إنكاره أثر البيئة في ذلك إلا أنه يقرر بأن هذه المؤثرات تكون غالباً جزءاً من الإرث الذي يتلقاه كل فرد عن والديه[1].

الأخلاق تتوارث وكذلك تتعلم

علماء التربية المسلمون يرون: أن الله خلق الأشياء وفق نمطين متباينين:

- **أحدهما**: كامل كأعضاء البدن داخلاً وخارجاً.
- **والآخر**: ناقصاً فيه قوة لقبول الكمال[2]. وكماله يكون بالتربية.

فليس غريباً أن تُنقل الموجودات الحية كثيراً من صفاتها وخصائصها إلى الأجيال التي تليها، فالأجيال اللاحقة تكتسب صفات الأجيال السابقة. والأخلاق تتبع الأمزجة وتسرى من الأصول إلى الفروع. قال النبي ﷺ: «**تخيروا لنطفكم**»، وقال أيضاً: «**عليكم بذات الدين**».

ويؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار**». فالنواة تحتوي على جميع الصفات المميزة للشجرة التي وجدت منها، فعندما تزرع هذه النواة، وتنبت تظهر تلك الصفات بشكل تدريجي. فالنواة ليست تفاحاً إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير تفاحاً إذا انضافت التربة إليها (البيئة)[3].

وفي هذا الإطار يوصي الإمام أبو حامد الغزالي - وقد اهتم بهذه الظاهرة - بأن لا يستعمل في حضانة الطفل وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال. فهو لا

(1) الإنسان ذلك المجهول - ألكسيس كاريل، ص: 180.
(2) الإحياء - الغزالي (3: 61).
(3) الإحياء - الغزالي (3: 61).

يقصر دورها على العملية التربوية كمؤثر بيئي وإنما يؤكد على دور الوراثة في عملية بناء شخصية الطفل[1].

كما حث الإسلام (ومن نفس المنطلق) اجتناباً للأمراض والعيوب الوراثية الابتعاد عن الزواج بالقريبة الشديدة القرابة أو بمن يعاني نسلهم من أمراض وراثية، قال النبي ﷺ: «**اغتربوا ولا تضووا**» (أي لا تضعفوا).

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل الصفات التي تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء هي صفات اللون والشعر فقط أم تتعداها إلى انتقال الأخلاق والسلوك..؟ حسم الأمر حديث النبي ﷺ الصحيح الذي خاطب فيه أشج عبد القيس رضي الله عنه فقال ﷺ: «**إن فيك يا أشج خصلتين يحبهما الله ورسوله**»، قال: ما هما بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «**الحلم والأناة**». قال: خلقان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما؟ فقال: «**بل خلقان جبلك الله عليهما**». فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله[2].

والحديث واضح.. فالأخلاق كما تُتعلم.. كذلك تُتوارث.

ثانياً: أثر البيئة في التربية

والبيئة التي تؤثر في تكوين شخصية الإنسان هي جميع العوامل المحيطة به وهي:

◄ البيئة الطبيعية التي يعيش الإنسان في كنفها.. فابن السهول غير ابن الجبال.. والبيئة الصحراوية القاسية.. غير بيئة السهول الخصيبة والأشجار الوارفة.. كل الطبيعة التي يتفاعل معها الإنسان تؤثر في نفسيته وتطبع شخصيته.

والكل يعرف قصة الشاعر الذي جاء من صحرائه يمدح الخليفة العباسي فلم يجد غير صور بيئته فقال:

أنت كالكلب في الوفاء وكالتيس في قراع الخصوم

(1) التربية الإسلامية عند الإمام الغزالي - أيوب دخل الله، ص: (253-258).
(2) مسلم (كتاب الإيمان - 25)، والترمذي (كتاب البر والصلة- 1934).

فلما جلس في بغداد. . عاصمة الخلافة يومذاك. . رقت حاشيته وعذبت لغته فمدح الخليفة في قصيدة مشهورة مطلعها:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أثرت فيه البيئة وجمال الطبيعة.

◄ والبيئة الاجتماعية التي تتكون من المجتمع البشري الذي يحيط بالإنسان، ابتداء بالأسرة ومروراً بغيرها من الجماعات كجماعة اللعب والجوار والمدرسة والعمل وغيرها، يكون الإنسان فيها عرضة للمؤثرات المختلفة التي تحاول أن تشكل شخصيته وفق العادات والتقاليد التي تنسجم مع نظرة هذه الأطراف إلى الحياة[1].

وعلى الرغم من أهمية عامل الوراثة في العملية التربوية، إلا أن للمؤثرات البيئية دوراً في بناء الإنسان لكونه وجد وجوداً ناقصاً ولديه الاستعداد أو القوة للسير باتجاه الكمال في حال توفرت شروطه[2].

تغليب أثر البيئة

إن انتساب الإنسان إلى بيئته يُضاهي انتسابه إلى آبائه، كما أشار إلى ذلك الإمام ابن القيم حيث يقول: ولكن نحن أبناء الزمان، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم، ولكل زمان دولة ورجال[3].

فكل حال خالطته النفس مدة طويلة، تتأثر به على نحو معين، تتكيف به الأفكار والتصورات والأخلاق والتصرفات على شاكلة خاصة، وهو ما أوضحه ابن خلدون من كون أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر فقال: (وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه، لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً وملكة وعادة ينزل منزلة الطبيعة والجبلة)[4].

---

(1) التربية الإسلامية عند الإمام الغزالي (المرجع السابق)، ص: 259.
(2) الإحياء - الغزالي (3: 61).
(3) أعلام الموقعين - ابن القيم (4: 201).
(4) المقدمة - ابن خلدون، ص: 125.

ويتجه هذا الكلام إلى تغليب أثر البيئة في السلوك، على أثر الفطرة الإنسانية التواقة إلى الصلاح والفضيلة، وهو الموقف الذي اختاره مالك بن نبي حيث قال: (إن حياة الفرد قبل أن تكون منوطة بذاته الخاصة وموهبته الشخصية، هي منوطة أولاً وقبل كل شيء بصلته بمجتمع معين)[1].

ويرجع تفسير هذه الظاهرة إلى ميل النفس الشديد إلى الانشغال بما يفد عليها عبر منافذ الجسم من سمع وبصر وشم ولمس، أكثر من انشغالها بما طبع عليه باطنها من سجايا ثابتة، ومن ثم فإن لون البيئة ومسحتها العامة، تظل طاغية فيما ينتج عن النفس من مواقف فكرية وممارسات سلوكية. حيث (هناك ارتباط عضوي بين الفرد وإطاره الاجتماعي، فمعطيات البيئة الاجتماعية سلبية كانت أم إيجابية تنعكس فكرياً ووجدانياً وقيمياً على تكوين الفرد وحياته، من خلال تفاعله المستمر مع الآخرين، فالأفراد في المجتمع يتعلم بعضهم من بعض ويتأثر الجميع بالأشياء المحيطة. كما أن تيار المؤثرات قد يزعزع فيهم قيماً واتجاهات، وقد يزرع فيهم قيماً واتجاهات أخرى)[2].

وفي الأثر النبوي أن المسكن مما يُتشاءم منه.. ومسكن الإنسان هو بيئته القريبة منه.

وفي الحديث.. أن الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين رجلاً وكان يبحث عن التوبة.. أمره الرجل الصالح بمغادرة المكان أي بتغيير البيئة الفاسدة إلى بيئة أكثر صلاحاً.

وإذا كان العامل الوراثي، والتقاء نطفة الرجل ببويضة المرأة، مسؤولاً عن تكوين الجنين، فإن رحم الأم الذي يتمتع بكافة الشروط المطلوبة لإتمام عملية النمو هو البيئة المناسبة التي تمدّ هذا الجنين بمقومات الحياة.

فكأن عوامل البيئة من الخارج، وعوامل الوراثة من الداخل تعملان معاً.. ومنذ اللحظة الأولى في بناء الحياة[3].

---

(1) تأملات - مالك بن نبي، ص: 24.

(2) التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي- د. علي القريشي، ص: 124.

(3) أسس الصحة النفسية - عبد العزيز القوصي، ص: 15.

وكما أن البدن في الابتداء لا يُخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية وبالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم[1].

وحديث النبي ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[2]، يوضح هذا التلازم بين الوراثة والبيئة في العملية التربوية.

فالطفل يولد على الفطرة السوية وأبواه (أي البيئة) يجعلان هذه الفطرة تستقيم على طبيعتها السوية أو يعملان على انحرافها، وذلك حسب التوجيه الذي يوجهانه به، أو التربية التي يربيانه عليها. ومن هنا فالبيت والشارع والمدرسة والمجتمع ذو أثر حقيقي وحاسم في تنشئة الطفل. مع عدم إغفال العامل الوراثي على الإطلاق، بل مع توكيد وجوده وتوكيد أهميته في الحياة البشرية.

أين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الإسلام من عمر في الجاهلية..؟

أين جفوة القلب، وخشونة الحس، والعناد الأصم، من رقة عمر حين أسلم، ولين جانبه إلى الحق وانعطافه إليه، وحساسيته المرهفة وبكائه لآلام الناس..؟ ومع ذلك فإن الطابع العام لعمر رضي الله عنه ليس هو الذي تغير (الجانب الوراثي)، وما كان مطلوباً منه في الإسلام أن يتغير. بقيت له قوته وصرامته وحسمه وعزمه.. ولكن في الحق والخير وإنفاذ كلمة الله[3].

المؤسسات الاجتماعية

تقوم المؤسسات الاجتماعية وهي مؤسسة البيت أو الأسرة، والشارع، والمدرسة، والمسجد والجماعات السياسية والاجتماعية، وغيرها من المؤسسات، التي يتدرج الإنسان في محاضنها مرحلة بعد مرحلة.. بدور رئيس في إصلاح الفرد وتهذيبه.. وإذا كان التدخل في العامل الوراثي بعد ولادة

(1) إحياء علوم الدين - الغزالي (3: 66).
(2) البخاري (كتاب الجنائز - 1270 1296)، ومسلم (كتاب القدر - 4803).
(3) منهج التربية الإسلامية - محمد قطب 2: 88 (بتصرف).

الطفل أصبح مستحيلاً.. فإن التدخل في عامل البيئة والمؤسسات المكونة لها ممكن.. وعليه فإن التربية تقوم أساساً على التدخل في البيئة لتقوية العوامل الوراثية الإيجابية.. أو التخفيف من سلبيتها..

ثالثاً: دور المربي في العملية التربوية

المربي عامل أساس في حياة كل إنسان، ويحتل أشد المواقع تأثيراً في تكوين شخصيته، ذلك أن الإنسان يولد عاجزاً أتمّ العجز، وجاهلاً في كل شيء، ولكنه إذ يحمل مواهبه الفطرية يغدو بأمس الحاجة إلى معلم مربّ يساعده إلى استثارة دوافعه، وتحويله من مجرد كائن عضوي إلى إنسان ذي شخصية متميزة[1].

وعلى المربي سواء أكان أماً أو والداً أو معلماً أو داعية مرشداً أن يستشعر في قلبه الرحمة والحب والحنان لمن يربيه، لا أن يقوم بواجبه عملاً بدون روح وواجباً من غير رغبة، يؤدي ما هو مطلوب منه كأنه مذياع أو آلة بلا إحساس ولا عاطفة، يجب أن يُشعر كل من حوله بأنه صادق في تربيته يتمنى النجاح والتوفيق ويعين عليه، ويبغض المعصية ولا يبغض صاحبها[2]. وللمدرس أدوار متعددة يقوم بها في تعامله مع طالبه.

المدرس كرجل تعليم

نشأ هذا الدور مع نزول القرآن الكريم، وقام القراء ثم الفقهاء بدور المعلمين الأول لأحكام الدين، استجابة لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[3].

ومع الزمن تنوعت العلوم، وتعددت طوائف المعلمين، وتنوعت أساليب إعدادهم، وأماكن تواجدهم.

والمدرس كعالم

وفرق بين معلم الفقه.. وبين الفقيه العالم.

---

(1) الرسول العربي المربي - د. عبد الحميد الهاشمي، ص: 150.
(2) المراهقون - سمير الراضي، ص: 92.
(3) سورة التوبة، الآية: 122.

ومثل هؤلاء المدرسين الأعلام كانوا يدرسون أمهات الكتب، والمراجع العلمية الكبرى التي وضعها أئمة العلم في مختلف مجالات المعرفة.

والمدرس كمرب

وهذا الدور ربما فاق في أهميته غيره من الأدوار، فالتعليم تربية، والتربية عملية أخلاقية، والأخلاق ديانة وحضارة. ولهذا قدم المسلمون التأديب على التعليم.

أثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قوله: (تأدبوا ثم تعلموا).

وفي هذا يقول الزهري: (كنا نأتي العالم فما نتعلم من أدبه أحب إلينا من علمه).

وعليه فقد اشترطوا على المربي صفات شخصية نفسية وسلوكية تجعل منه مثالاً طيباً ونموذجاً صالحاً مؤهلاً لبث القيم المرعية، ودعم الاتجاهات الاجتماعية، وتصحيح أخطاء السلوك الانحرافية.

قال بعض السلف: (كنا نمزح ونضحك فإذا صرنا يُقتدى بنا، فما أراه يسعنا ذلك).

وقال ابن الجوزي: (لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس وفي يده كسرة يأكلها قلّ عندهم).

وعليه، فعلى من نذر نفسه لهذه المهمة الخطرة.. أن يتحلى بمواصفات خاصة تمكنه من القيام بواجبه منها:

١ - أن يكون المربي مخلصاً في عمله:

ينظر لمهمته هذه على أنها عبادة لله.. النية فيها خالصة.. والتوجه فيها صادق.. فلا يمن على تلامذته بتعليمه إياهم فهذا مما يفسد نية العبادة.. على المربي أن يقتدي بالأنبياء الذين قالوا لأقوامهم: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٥١﴾﴾[1].

(1) سورة هود، الآية: 51.

٢ - أن يكون ربانياً

إذا كانت التربية والتعليم رسالة سامية لا يتقدم المجتمع إلا بها.. فإن دور المعلم أساس في أداء هذه الرسالة. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

يقول الطبري شيخ المفسرين في تفسير هذه الآية: (الربانيون هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا، وقال مجاهد: هم الأحبار الذين يجمعون بالإضافة إلى العلم والفقه، البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية وما يصلحهم في دنياهم ودينهم[2]، وبعبارة أخرى أن تكون شخصيته أقوى، وثقافته أعلى، وفهمه لأحداث عصره أشمل وأعمق وأوعى.

٣ - أن يكون خلوقاً

والأخلاق التي ينبغي أن يلتزمها المربي، هي أخلاق الإسلام التي بيّنها الله تعالى في قرآنه، وفصلها رسوله ﷺ في سنته، وانصبغ بها صحابته في سلوكهم، وأهم ما يخص المربي منها:

الحب

لقوله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴿٣١﴾﴾[3].

ومن لوازم هذا الحب:

- التذلل للمؤمنين ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾﴾[4].
- والعزة على الكافرين ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾[5].
- وسلامة الصدر في التعامل مع الناس.
- والإيثار كمرحلة متقدمة في الحب.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 79.
(2) تفسير الطبري (6: 543).
(3) سورة آل عمران، الآية: 31.
(4) سورة المائدة، الآية: 54.
(5) سورة المائدة، الآية: 54.

الصدق

لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[1].

ويكون الصدق بالقصد والقول والعمل. والمربي المسلم يظهر أثر صدقه في وجهه وصوته، فقد كان ﷺ يتحدث إلى من لا يعرفونه فيقولون: والله ما هو بوجه كذاب ولا صوت كذاب.

الصبر

وهو من فروض الإسلام. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ويكون الصبر: صبر على طاعة الله، وصبر على معصية الله، وصبر على البلاء.

أما الصبر على طاعة الله، فيكون بالمحافظة عليها ووقوعها على مقتضى الشرع..

والصبر على المعصية، فيكون بهجر السيئات والفرار من المعاصي..

أما الصبر على البلاء، فيكون بترك التسخط واحتمال المؤلم والمكروه وترك الشكوى للناس..

والصبر ضرورة لكل إنسان.. وهو للمسلم المربي ألزم. فقد لا تتحقق أهدافه بالسرعة المطلوبة، وقد لا يكون تلميذه باراً به، ومع ذلك فلابد من الصبر الجميل حتى يتمكن من الوصول إلى أهدافه.

الرحمة

لقوله ﷺ: **«لا يُرحم من لا يرحم الناس»**، و**«لا تُنزع الرحمة إلا من شقي»**.

إن المربي لابد أن يكون إنساناً ينبض قلبه بالرحمة والشفقة على من يعلمه.. والرحمة تهوّن على المربي ما يلقاه من أصحاب الغفلة والجهالة.. كما أنها تثمر العفو والصفح لقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[2].

---

(1) سورة التوبة، الآية: 119.

(2) سورة الأعراف، الآية: 199.

التواضع

لقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴿٢٨﴾﴾[1].. وقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾[2].

الحلم والأناة

لقوله ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»[3].

الرفق

لقوله ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله**»[4].

هذه الأخلاقيات التي على المربي أن يتحلى بها، هي التي تولد الحب بينه وبين تلميذه.. وبغير الحب لا تربية ولا عطاء.

٤ - أن تكون العلاقة بين المعلم والتلميذ قائمة على المحبة والعطف المتبادلين، علاقة (أخوة)، أو (أبوة) أو (بنوة).

يجب على المربي أن تتوفر فيه الطبيعة الخيرة الرحيمة الهينة اللينة. المعدة لأن تتجمع عليها القلوب وتتآلف حولها النفوس.. يجب أن يكون رحيماً بمن معه، ليناً معهم. فالناس بحاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم.. في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم، ولا يعنيهم بهمه.. ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف، والسماحة والود والرضاء[5].

---

(1) سورة الكهف، الآية: 28.

(2) سورة الشعراء، الآية: 215.

(3) مسلم (كتاب الإيمان - 25)، والترمذي (كتاب البر والصلة - 1934).

(4) البخاري (كتاب الأدب - 5565)، ومسلم (كتاب البر والصلة- 4697).

(5) طريق الدعوة - سيد قطب، ص: 193.

لابد أن ينظر المربي إلى تلامذته كما ينظر الوالد إلى ولده.. انسجاماً مع قوله ﷺ: «**إنما أنا لكم مثل الوالد لولده**»[1].

يقول ابن جماعة أحد رواد الفكر التربوي (639-732هـ).

(وينبغي أن يعتني المدرس بمصالح الطالب، ويعامله بما يعامل أعز أولاده من الحنو والشفقة والإحسان إليه، والصبر على جفاء ربما وقع منه، ونقص لا يكاد يخلو الإنسان منه، وسوء أدب في بعض الأحيان، ويبسط عذره بحسب الإمكان، ويوقفه مع ذلك على ما صدر منه بنصح وتلطف، لا بتعنيف وتعسّف، قاصداً بذلك حسن تربيته وتحسين خلقه، وإصلاح شأنه)[2].

(وينبغي أن يتودد لحاضرهم، ويذكر غائبهم بخير، وأن يتعرف على أسماء طلابه وأنسابهم ومواطنهم وأحوالهم، ويكثر الدعاء لهم بالصلاح)[3].

(وينبغي أن يسعى في مصالحهم، وجمع قلوبهم، ومساعدتهم بما تيسر عليه من جاه ومال، وإذا غاب بعضهم سأل عنه، وعن أحواله، وقام بزيارته)[4].

(وينبغي ألا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده في مودة أو اعتقاد، فإن ذلك ربما يوحش منه الصدر وينفر القلب)[5].

٥ - لا يتعصب لعلم دون آخر

ينبغي أن يكون المعلم حَكَماً مخلصاً يوجه الطالب إلى ما يفيده.. فلا يثني على العلوم التي يدرّسها لتلميذه ويذم أخرى.. فالعلوم تتكامل في النهاية ويستفيد منها الطالب في تكوين صورة متكاملة للأمور.

---

(1) ابن ماجه (كتاب الطهارة- 309).
(2) تذكرة السامع والمتكلم - ابن جماعة، ص: 50.
(3) تذكرة السامع والمتكلم - ابن جماعة، ص: 60.
(4) تذكرة السامع والمتكلم - ابن جماعة، ص: 61.
(5) تذكرة السامع والمتكلم - ابن جماعة، ص: 59.

٦ - أن يكون حسن العطاء

قادراً على تقديم فكرته. وفرق بين مدرس يتقن علومه فيبسطها.. ويحسن عرضها لطلابه، ومدرس يفهم المادة على حرف، غير واضحة في نفسه، وبالتالي لا يستطيع توضيحها لطلابه، ففاقد الشيء لا يعطيه.

٧ - أن يكون فعله مرآة صادقة لعلمه

فتكون كلمته عظة وسلوكه قدوة. قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1].

وقال سيدنا علي ﷺ: قصم ظهري رجلان، عالم متهتك وجاهل متنسك، فالجاهل يغرّ الناس بتنسكه، والعالم يغرّهم بتهتكه.

٨ - يتدرج في تعليم تلاميذه وملاحظة قصورهم

ولا يدهشنا أن نجد علماءنا التربويين على خبرة بكثير من المباحث في السيكولوجية التعليمية. ولقد لخص الإمام الغزالي هذه الوظيفة فقال:

(الوظيفة السادسة: أن يقتصر (المعلم) بالمتعلمين على قدر إفهامهم، فلا يرقيهم إلى الدقيق من الجلي، وإلى الخفي من الظاهر، هجوماً، وفي أول رتبة، ولكن على قدر الاستعداد.

الوظيفة السابعة: أن المتعلم القاصر (سواء أكان بالفهم أم بالسمع أم بالنطق أم بالبصر أم بالحركة) ينبغي أن يُذكر له ما يحتمل فهمه. حتى إذا استقل به رُقي إلى غيره بالتدريج)[2].

٩ - أن يتابع تلميذه

في قاعات الدرس وخارجها.. في المدرسة وبعد انتهائها.. في مرحلة التعليم والعمل.. يهتم به ويسدده ويأخذ بيده، كيف لا، أليس هو كالوالد؟

---

(1) سورة البقرة، الآية: 44.

(2) الإحياء- الغزالي (1: 57).

١٠ - أن يستخدم أسلوب التعريض قبل العقوبة

كما وينبغي أن يستخدم المعلم الأسلوب الأسهل مع تلميذه في معرض إرشاده وتصحيح أخطائه وتقويم سلوكه. يعرّض ولا يصرّح.. فالتصريح والتوبيخ العلني يورث الجرأة عند الطالب ويدفعه للإصرار على الخطأ.

ولقد رسخت الأبحاث التربوية النفسية مبدأ البعد ما أمكن عن التوبيخ واستعمال العبارات القاسية في مجال التربية والتعليم.. والاستعاضة عنها بالنصح ولفت النظر والتوجيه.. ولا يُلجؤ للزجر إلا في المرحلة الأخيرة. فالأبوة لا تعني التغاضي عن العيوب الخفيفة، وليست التربية تنمية الأخلاق الردية.

١١ - أن يكتشف الطاقات

ومن أهم واجبات المربي القائد أن يتعرف على طلابه.. فيضع كل واحد منهم في مكانه.. وكم من الطاقات اكتشفها المربون.. شجعوها وأحسنوا توجيهها.. فكان لها مكان مرموق في عملية الإصلاح الاجتماعي.

الفروق الفرديّة

إن الأفراد ليسوا أنماطاً متناظرة متماثلة في مواهبهم وقدراتهم، كما أنهم ليسوا بشكل واحد في مظاهر أجسامهم. فهناك فروق عديدة بين كل إنسان وآخر، قد تكبر تلك الفروق وتتسع، وقد تصغر وتضيق، ولكنها موجودة على كل حال.

والموهبة استعداد فطري، يحمله إنسان معين، ولكل فرد موهبة معينة، تكمن فيها فتيلة الإبداع، وتظل هذه الفتيلة كامنة إلى أن يهيئ لها الله من يكتشفها، فحينئذ يتفجّر الإبداع و(كل ميسر لما خلق له)[1].

وللمواهب دور خطير في كل المجالات، فالحاكم الموهوب يقود أمة مبدعة، والزوج الموهوب ينجب ذرية نافعة ذكية ويبني أسرة صالحة، والمعلم الحكيم

(1) البخاري (كتاب تفسير القرآن- 4568).

يُخرّج طلاباً عباقرة، وكل هذه المواهب تحتاج من يكتشفها ويقوّمها، فهي كاللبن لا تخرج الزبدة منه، إلا بعد خضّه، لقد اهتم الإسلام باكتشاف المواهب، حتى في ملاعب الأطفال المعدين فطرياً منذ صغرهم لشتى المجالات. ولهذه الفروق في المواهب حكم تربويّة واضحة فهي:

◄ تؤكد قدرة الله سبحانه وتعالى وبديع صنعه ودقيق علمه. إن أعظم معمل لصناعة السيارات مثلاً لا يستطيع أن ينتج كل يوم ملايين السيارات، وكل سيارة منها لها تركيبها الخاص، وأجهزتها الفرديّة، مما يجعلها تختلف عن غيرها.. لأن العقل الإنساني والصناعي لا يستطيع ذلك. ولأنه يحتاج في كل نموذج معين إلى مهندس خاص ومعمل مستقل وعمال متمايزين.. بينما الله الخالق فإنه منذ أول الخليقة من آدم (عليه السلام) إلى يومنا هذا، وإلى ما شاء الله، يخلق كلّ دقيقة آلاف الناس، وكل إنسان له فرديته ومزيته وشخصيته.. وله فروقه الخاصة.. في صوته وشكله.. وقدرته وتركيب جسمه وأطرافه.. بل في انطباعاته (انطباعات يديه ورجليه)، وبصمات أصابعه.. يقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾[1].

◄ حكمة اجتماعيّة تربويّة، فالمجتمع الإنساني يجب أن يكون متكاملاً متعاوناً، وفردٌ واحدٌ مهما أوتي من ذكاء وعبقريّة أو علم غزير، أو مال واسع، أو جسم قوي متين، أو كفاية اجتماعيّة ناجحة.. لا يستطيع أن يكون كل شيء، أو أن يستغني عن غيره في أكثر المتطلبات اليوميّة.

لذلك فالمجتمع المتكامل هو الذي فيه مدرس ومهندس، وفيه عامل ومزارع، وفيه طبيب وصيدلي، وفيه تاجر وحداد وطحان، وفيه موظف ومدير، وفيه قائد وجندي، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۝٣٢﴾[2]

(1) سورة القيامة، الآية: 4.
(2) سورة الزخرف، الآية: 32.

◄ خلقيّة إنسانيّة، فالإنسان مهما أوتي من ذكاء أو قوّة أو علم فعليه ألّا يغتر بذلك ولا يتكبر على سواه. فإنه في أمس الحاجة إلى من هو أدنى منه. فالمهندس لابدّ له من مساعدين وعمال. والمدرس لابدّ له من طالب علم.

والجانب الخلقي والتربوي يظهر فيمن لديه نقص أو ضعف في جانب واحد من قدراته.. فهذا عليه ألا يركز حياته على مواطن ضعفه فيعيش حياته أسيراً لهذه الدائرة.. بل عليه أن يركز على مواطن القوة لديه.. وسيعالج ذلك مواطن ضعفه تلقائياً.

والله سبحانه وتعالى إن سلب من أحد شيئاً فإنه يعطيه في أشياء أخرى، فقد تجد الرجل النحيل في جسمه قويّاً في عقله، وقد تجد من فقد حاسّة قد عوضه الله عنها نشاطاً زائداً في حواسه الأخرى..

ترى الرجل النحيل فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

رابعاً: دور الطالب في العملية التربوية

وكما اهتمت المناهج التربوية بتوجيه المدرس.. كذلك فعلت مع الطالب، فهما معاً طرفا العملية التربوية..

وكما أن للمربي آداب ينبغي أن يأخذ نفسه به.. كذلك للطالب آداب:

1 - يجب أن يكون إقباله على العلم بنية العبادة لا بنية الحصول على الحظوة في المال أو الجاه..

وفي الحديث الصحيح.. «يسأل الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ذلك العالم فيقول له: ماذا فعلت؟ يقول: تعلمت القرآن وعلّمته في سبيلك.. فيقول الله ﷻ: كذبت ولكنك تعلمت وعلّمت ليقال: فلان عالم وقد قيل.. خذوه فألقوه في النار».

والعلم ليس بكثرة حفظ المتون.. ولكن بقرب صاحبه من الله تعالى وخشيته له.

وعليه فعلى المتعلم أن يقدم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف، إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى، وكما

لا تصح الصلاة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته من خبائث الأخلاق[1].

2 - أن يعطي العلم كل نفسه

وما لم يفعل.. فلن يحصّل شيئاً.

في مراحل الدراسات الجامعية.. كنا نلاحظ طلاباً يحفظون جملاً قليلة أو متوناً يتوقعون أن يُسألوا عنها في الامتحان.. وكنا نلاحظ طلاباً قلائل يقبلون على العلم ليفهموا أسراره ويتفاعلوا معه..

الفريق الأول: يتخرج من الجامعة ومعه شهادة، لم يستفد هو من العلم، ولن يستفيد أحد منه.

والفريق الثاني: هو الذي أعطى العلم كل نفسه.. فأعطاه العلمُ زمامه.

وعليه فإن أسلوب الكتاتيب الإسلامية التي يأتيها طالب العلم من بلاد بعيدة.. ينقطع فيها للعلم.. لا يشغله دنيا ولا أهل ولا وطن.. هي من أسباب ارتقاء طالب العلم وتفوقه.

3 - علاقته مع معلمه

(وينبغي أن يصبر الطالب على جفوة صدرت من شيخه، وأن يتأول أفعاله وأقواله التي يظهر أن الصواب خلافها على أحسن تأويل، وأن تكون الصلة بين الطرفين مبنية على التقدير والأدب والاحترام والإجلال والمحبة)[2].

قال الشعبي: (صلى زيد بن ثابت ﷺ على جنازة فجاء ابن عباس ﷺ فأخذ بركابه فقال زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء، فقبل زيد يده، وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ)[3].

---

(1) إحياء علوم الدين (1: 48).

(2) معالم من الفكر التربوي عند علماء المسلمين- أحمد محمد الخراط، ص: (9-45) باختصار.

(3) قال الحاكم صحيح الإسناد على شرط مسلم.

وقال علي رضي الله عنه : إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته بالجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سراً، ولا تغتابن أحد عنده، ولا تطلبن عثرته، وإذا زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته[1].

4 - على الطالب أن يحترز في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو علوم الدين، فإن ذلك يدهش عقله ويحيّر ذهنه ويفتّر رأيه ويجعله يائساً عن الإدراك والاطلاع، بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب والشبه. شأنه شأن حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار، ولقد نهى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما رآه يقرأ في صحائف التوراة، وقال له: لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني.

5 - أدب الطالب مع العلوم

- لابد للطالب الجاد أن ينظر في العلوم المحمودة النافعة، نظراً يؤهله فهم هذه العلوم بشكل إجمالي.. ثم يطلب التوسع في جانب من هذه العلوم.. والعلوم متعاونة ومرتبط بعضها ببعض.. فإن لم يفهم هذه العلوم واكتفى بتخصصه فسيبقى جاهلاً.
- وعلى الطالب أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة، بل يراعي الترتيب ويبتدأ بالعلم الأهم.
- وعليه أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً منطقياً وبعضها طريق إلى بعض، والطالب الموفق من يراعي ذلك الترتيب والتدرج.

(1) إحياء علوم الدين (1: 51).

خلاصة الفصل السابع

العوامل المؤثرة في بناء الشخصية

1 - **دور الوراثة**

- ◄ الجينات.
- ◄ العرق نزاع.
- ◄ الأخلاق تتوارث.

2 - **دور البيئة**

- ◄ البيئة الطبيعية.
- ◄ البيئة الاجتماعية

3 - **دور المربي**

- ◄ رباني ◄ خلوق (الصدق، الرحمة، التواضع الحلم، الرفق).
- ◄ العلاقة بين المعلم والتلميذ. ◄ لا يتعصب لعلم.
- ◄ حسن العطاء. ◄ مرآة صادقة لعلمه.
- ◄ التدرج. ◄ المتابعة.
- ◄ التعريض قبل العقوبة ◄ اكتشاف الطاقات.

4 - **دور الطالب**

- ◄ علمه بنية العبادة.
- ◄ أن تعطي العلم كل نفسك.
- ◄ العلاقة مع المعلم.
- ◄ عدم الإصغاء لاختلاف الناس.
- ◄ أدب الطالب مع العلوم.